٢

شباط

يقال شباط ، واشباط ، وسباط بالسين المهملة ، وهو شاباطو البابلي . ويأتي بالسريانية بمعنى الجلد والضرب بالسياط . وتقول العامة في لبنان : « شبط البيت » بمعنى كنسه ونظفه بالمساء ، و« المشباط » عندهم ضرب من المكانس ، يؤخذ من نبات معروف . « وشيطر » السريانية معناها الواسع ، الساط ، ولعل في ذلك اشارة الى ما ينهمل فيه من الامطار الغزيرة المدرارة . ويقال ان الشمس تدخل فيه برج الحوت . ويقابله بالافرنجية « فقريه » المأخوذة عن فبروارياس اللاتينية ومعناها « المطهر » نسبة الى ما كان يقيمه الرومانيون من ١٣ الى ٢١ منه من اعياد التطهير والتكفير عن الذنوب . وقد كانوا يصورونه بهيئة امرأة تلبس وشاحاً ازرق ، وقد حملت كنارًا بيدها ، والى جانبها آنية من خزف يتدفق منها الماء الغزير ، وعلى رجليها طير البحر المعروف بمالك الحزين . وبذلك كانوا يشيرون الى ما يتساقط فيه من الامطار الكثيرة التي تكاد تغرق الارض ببحر من المياه .

ولقد كان هذا الشهر في اصله ٢٩ يوماً في السنين العادية ، و٣٠ في السنة او الكبيسة . فلما اسمى الرومانيون شهر سكستيليس عندهم ، المقابل لآب من اشهرنا ، باسم اغسطوس قيصر تكريماً له اخذوا من شباط يوماً اضافوه الى

اغسطوس حتى لا يكون اقل اياماً من شهر يوليو المسمى باسم يوليوس قيصر ، احد سلفائه . وهكذا اصبح شباط على ما نراه في السنين العادية ٢٨ يوماً ، وفي الكبيسة او النسيئة ٢٩ .

* * *

والاساطير اللبنانية تصوّر شباط رجلاً من اهل الظرف يحب الدعابة ، على تقلّب في الرأي ، وخبث في الاخلاق ، وكره شديد للعجائز من النساء يدفعه الى السعي في سلبهنّ الحياة ؛ وقد توسموا بتمديد كرهه وبغضه الى الشيوخ من الرجال ايضاً . ولهذا ترى الطاعنين في السن من الجنسين في بعض انحاء لبنان ، متى قرب شباط ، يرسمون صليباً بالكلس على ابواب بيوتهم دفعاً لاذاه وشره ، تشبّهاً بما فعله بنو اسرائيل في مصر لوقاية ابكارهم الذين استبقاهم ملك الموت حينما اجتاح ابكار المصريين . (خروج: ف ١٢)

ولعل الاسطورة المروية عما يتعمده شباط للشيوخ من الموت والهلاك ذات علاقة بمعتقد الفينيقيين الذين كانوا يؤلهون قوى الطبيعة ويعتبرون الشتاء رمز الفناء والموت اعتبارهم للربيع رمز الحياة والانعاش والانتاج ، ومعتقدهم ذاك كان يدفعهم الى اقامة حفلتين مختلفتين لالههم ادونيس ، مثال الشمس ، الاولى ابان الشتاء احتفالاً بموته المرموز به الى موت الطبيعة ، والثانية ابان الربيع احتفالاً بقيامته المرموز بها الى تجدد الطبيعة وعودها الى الحياة .

وهناك من ينسب الاسطورة المذكورة الى ايام « برد العجوز » المعروفة عند العرب ، وهي سبعة : اربعة منها في آخر شباط ، وثلاثة من اول اذار ، واسماؤها : صنّ ، وصنبر ، ووبر ، وآمر ، ومؤتمر ، ومعلل ، ومطفئ الجمر . ومما قالوه فيها ان عجوزاً دهرية كاهنة من العرب كانت تخبر قومها ببرد يقع في آخر الشتاء يسوء في اثره في الماشية . فلم يكترثوا لقولها حتى فوجئوا به فانزل بهم الاضرار الفاحشة . وقيل ايضاً ان عجوزاً كان لها سبعة بنين سألتهم ان يزوجوها واحت فقالوا ابرزي للهواء سبع ليالٍ حتى نزوجك . ففعلت ، والزمان شتاء ، فماتت في السابعة .

وهذه الايام السبعة يدعوها اللبنانيون « بالمستقرضات » ويقولون ان شباط

استخدمها لاهلاك العجوز . ولعجوزهم اسطورة يتداولونها ملخصها : ان عجوزًا ارادت اتقاء شر شباط ، عدوّ العجائز اللدود ، فاعدّت عدتها من طعام ووقود وملابس . وعلم شباط بامرها فصمم على الفتك بها . ولما صار اليه الحكم في الطبيعة اخذ يرمي الارض بالبروق والرعود والصواعق والامطار . ثم ارسل عليها ريحًا شمالية باردة كستها بالثلوج والصقيع ، وكادت تقضي بالموت على كل ذي حياة . اما العجوز فقبعت في منزلها ، مع ابنة لها كانت تعينها على مكافحة شباط ، وأكبت على ايقاد النيران ، والتدثر بالملابس الثقيلة ، وتناول المآكل والمشارب المدفئة . حتى اذا صار شباط في عقده الثالث تنفست الصعداء وقالت متهكمة : « راح شباط وفي قفاه مخباط . »

وسمع شباط مقالها فازداد حنقًا ولم يرَ بدًّا من اطالة ايامه ، فجاء الى رديفه اذار يستقرض منه ثلاثة ايام يستخدمها في القضاء على العجوز وقال له : « يا اذار ، يا ابن عمي ، ثلاثة ايام منك ، واربعة مني . لاوقد العجوز ردانها ، وابيعها فدانهـا . » والردان دولاب كانت العجائز اللبنانيات يستعملنه لتسليك الحرير ، والفدان الزوج من البقر .

وفي رواية ثانية انه قال : « لاوقد العجوز دولابها ، واضع رأسها بين ركابها . »

وفي رواية ثالثة : « لاهلك العجوز وبنتها ، واشوفها عاقبة عنتها . »

فرنّ آذار له واقرضه ما طلب . ومضى شباط في انتقامه في الايام المستقرضة ، وقد فرغت عدة العجوز . وبعد ان اوقدت حتى دولابها ومغزلها للاستدفاء واصبحت لا تملك ما تدفع به اذى البرد ، تمكن شباط من اخماد انفاسها ، وتم له النصر عليها .

وعند قدماء الانكليز والاسكتلنديين حكاية تقليدية كهذه مآلها ان آذار يستعير ثلاثة ايام من نيسان ، وهذه الايام الثلاثة كانت عندهم ايام شؤم . فشيوع هذه الحكاية باركانها المتقاربة عند العرب والانكليز واللبنانيين يدل على ان لها اصلًا واحدًا يعود الى الخرافات الوثنية القديمة .

ويخاف اللبنانيون المستقرضات وامطارها وثلوجها ولا يأمنون على انفسهم من برد الشتاء الا بعد زوالها . ومن اقوالهم في ذلك : « في المستقرضات عنـد

جارك لا تبـات. » — « لا تقول خلصت الشتوية حتى تخلص المستقرضات المنكية » — « ما لك طرش يقوم الا بعد مستقرضات الروم.»

وينسبون الى شباط التقلب لتقلب الجو فيه بين صحو ومطر . ويتهكمون على المتقلب في مبادئه وافكاره ويتهمونه انه من مواليـد هـذا الشهر ومن اقوالهم في ذلك:« شباط ما على كلامه رباط.» - « امش على غيم كانون ولا تمش على غيم شباط .»

وشباط عندهم اعور منحوس. فاذا اكفهرّ الجوّ فيـه وامطر قالوا:« غمض شباط عينه». وان صفا وصحا قالوا :« فتح شباط عينه .»

وينسبون الى شباط النقص ويشبهون به كل ذي نقيصة ويقولون في ذلك: « فلان مثل شباط بيعير وبيستعير وبيظل ناقص »

ويصفونه ايضاً بالغدر :« راح شباط الغدار واجا ادار الهدّار .»

وشمس شباط وماؤه عندهم مضرّان. فالشمس تمرض كل من تعرض لها ، لذلك يتقونها شديد الاتقاء. ويوصون بحاذرتها .وماء المطر فيه موذٍ فلا يستحمون به ، ولا يدعونه يسيل الى آبارهم لئلا تأسن وتتولد فيها الديدان والهوامّ . ومن اقوالهم في ذلك:« شباط غيمه وهواه خير من شمسه وشتاه ،اي مطره «وشمس شباط تخبط الراس بالمخباط » ، وقولهم بلسان العجوز:« شمس شبـاط لكنتي (لانها تكرهها وتريد لها الضرر) وشمس ادار لبنتي (لانها تودّ لها ما هو اقل ضرراً) وشمس نيسان لي ولشيبتي » (لانها تريد لنفسها النافع المفيد)

وقد مهروا بمعرفة تأثير الشمس في الجسوم على اختلاف الفصول فقـالوا في ذلك:« شمس الربيع بتسرّ (من السرور) ، وشمس الصيف بتحرّ (من الحرارة) ، وشمس الخريف بتهرّ (اي تسقط الورق) وشمس الشتاء بتضرّ (من الضرر) .»

وبرد شباط يضعف الاجسام ويفقدها النضارة والصحة. ويقولون في ذلك ان آذار سأل شباط وهو راحل : « كيف فارقت الناس يا اخي شباط ؟ » فاجابه: « تركتهم صفر مبعجرين (متورمين) على المواقد قابزين (جائعين).»

واذا مضى شبـاط وتصلبت الخضراوات الشتوية كالفجل والخس واللفت وما شاكل قالوا :« داس او غاط عليها شباط »

وترامم رغم مطاعنهم بشباط واتهامهم اياه مختلف التهمات ، يطفون عليه حيناً ويقولون عنه انه «ابن حلال» اي طيب القلب . ومن اقوالهم في هذا المعنى: «شباط لو شبط ولو ابط ريحة الصيف فيه .» وذلك لقربه من فصل الربيع . وينسبون الى برده منع الجراد والجدب : «برد شباط يمنع الجراد والقحاط» اي القحط او المحل ، لانه يميت بيوض الحشرات التي تفتك بالمزروعات

وعندهم ان شباط على شدة برده تدبّ فيه السخونة في الطبيعة بجمار غير منظورة تقع من السماء ، وموعد وقوعها ٧ و ١٤ و ٢١ منه ، ويزعمون ان الاولى تسخن التراب ، والثانية الماء ، والثالثة الهواء . ومن ثم يصير الربيع على الابواب . واعتادوا ان لا يأكلوا «اليقسما» ، وهو مزيج الدبس والثلج ، الا بعد الجمرة الثالثة حيث لا يبقى خوف من التضرر بالبرد ويقولون في ذلك : «اليقسما في اول جمرة سم ، وفي ثاني جمرة دم ، وفي ثالث جمرة كل واصطم .» اي كل واسكت .

ويقول الزراع منهم ومن يهمهم مراقبة الجوّ ان الايام الثلاثة التي تقع فيها الجمار الثلاث تكون متشابهة طقساً ، فاذا كان الجو صاحياً دافئاً جميلاً او ممطراً بارداً مكفهراً او غير ذلك يوم وقوع الجمرة الاولى في ٧ منه ، انتظروا ان يكون كذلك في اليومين اللذين تسقط فيهما الجمرتان الثانيتان في ١٤ و ٢١ منه .

ويسمون عصارة الاشجار «الماوية» ، من الماء ، ويقولون في ذلك : «بعد تكامل الجمار تدبّ الماوية في العروق . وبيزهر الازرع والبرقوق .» وهذا يصح على الساحل لا على الجبل .

وفي شباط تلد المعزى صغارها . فاذا تأخرت الى اذار كان ما تلده ضعيفاً مهزولاً . ويقولون في ذلك : «لا تربي الا جدي شباط» . ويتشاءمون من السنة الكبيسة التي يكون شباط فيها ٢٩ يوماً ، ويزعمون انها تميت الماشية ، ولاسيما المعاشير والمواليد ، ومن منقولهم في ذلك : «في سنة الكبيس ، خليك على طروشك حريص .»